يأكلون الخبز فطيراً وكذلك اناسٌ من اهل ارلندا والبشناق ومن فلاحي نروج وسكان وستفاليا من غربي المانيا وغيرهم . وآكلو الخبز بالاجمال لا يزالون قليلين في العالم ويقدَّرون بنحو ٥٠٠ مليون من الامم المتمدنة ويقال ان فرنسا مع انها من اكثر الممالك استغلالاً للحنطة واستهلاكاً للدقيق فان من اهاليها اليوم نحو ستة ملايين لا يعرفون الحنطة وطعامهم الجودار والبُرّ الاسود والذُرَة والشاهَبلُّوط[1]

عادات الامم في موتاها

لا ريب ان الموت من اغرب ما يمرّ على مشهد الانسان واغمضهِ سرًّا ولذلك ما زال في كل عصرٍ وبين كل طبقةٍ من الامم محلاً للحيرة والرهبة على حدّ كل امرٍ مجهول . وقد تشعبت فيهِ مذاهب الناس فمنهم من لم يرَ فيهِ الا انهُ سُنَّةٌ من سُنَن الطبيعة ان ينتهي كل مركَّبٍ الى الانحلال فالانسان في ذلك على حدّ البهيمة والنبات وسائر الاجسام الحيّة . ومنهم من رأى انهُ عرضٌ يعرض للجسم تتوقف بهِ حركاتهُ وافعالهُ الى حين ثم يعود الى الحياة وهو ما كان عليهِ المصريون الاولون ولذلك كان من وكدهم ان يستبقوا الجسم صحيحاً ولو في ظاهر شكلهِ حتى اذا وافتهُ النفس بعد مزايلتها

(١) الجودار صنف من البرّ هشن اللباب يكثر زرعهُ في شمالي اوربا ويتخذ غذآء للانسان والحيوان واللفظ ليس بعربي صحيح لان الظاهر ان العرب لم تكن تعرف هذا الصنف ولكنا كذا رأيناهُ معرباً في بعض كتب المتأخرين ولفظهُ الافرنجي sciglo . والشاهبلوط هو المسمى في هذه الديار بابي فروة مركب مزجي من شاه و بلوط و يسمى في الديار الشامية بالكستنا وهي كلمة رومية

لهُ لا تنكر شيئاً من منظارهِ وكان متأهباً لحلولها فيهِ والعود الى ما كان عليهِ من الحياة . ومثل المصريين في ذلك الصينيون وهم على هذا المعتقد الى هذا اليوم حتى يقال انهم يحرصون اشدّ الحرص على ان لا ينقص شيء من اعضآئهم ولذلك كان انكى العقوبة عندهم قطع الرأس . ولفرط عنايتهم بالحياة المستقبلة يُعدّ الواحد منهم تابوتهُ في حياتهِ ويستصحبهُ في سفرهِ وكثيراً ما يعدّ الولد تابوت ابيهِ ويجعلهُ هديةً لهُ

وكان اليونان يعتقدون ان الميت لا يصير الى مقام السعادة ما لم يُوارَ في التراب ولذلك كان من الفروض الدينية عندهم ان من رأى جثةً غير مدفونة يلقي عليها شيئاً من التراب . وروى لوشيانوس ان اول فرضٍ يجب عليهم للميت ان يضعوا في فيهِ قطعةً من السكة تسمى ذاتاكي (وهي قطعةٌ حقيرة تقدَّر اليوم بستة عشر سنتيماً) ليؤدّيها عند ركوبهِ سفينة كارون وهو الربّان الذي يجوز بالانفس الى العالم الاخروي . على انهُ كان عندهم مع عادة الدفن عادة احراق الجثث ثم كثرت هذه العادة حتى غلبت على الدفن ولذلك يقول لوشيانوس ان اليونان يحرقون اجساد موتاهم والفرس يدفنونها . وكانوا ينضدون الحطب ويضعون الجثة في اعلاهُ وفي اثناء الحريق يصبون على النار زيتاً وطيباً ومتى همدت اطفأوا ما بقي من جمرها وصبوا عليها خمراً وتناول الاهل والاصدقآء عظام الميت فغسلوها بالخمر والزيت ووضعوها في آنيةٍ مخصوصة تكون احياناً من الذهب

ومن سُنَنهم انهم كانوا لا يدفنون من مات مجرماً بحكمٍ قضآئي ولكن يطرحون جثتهُ في مكانٍ مخصوص زيادةً في التنكيل . ومن مات منتحراً

قطعوا اليد التي انتحر بها ودفنوهُ في موضعٍ ودفنوا اليد في موضعٍ آخر . ومن مات مصعوقاً عدُّوهُ مقدَّساً فلم يدفنوهُ مع سائر الناس ولكن يُدفَن في الموضع الذي صُعِق فيهِ

وكان الرومان في كثيرٍ من ذلك على طريقة اليونان فكانوا يضعون في فم الميت قطعةً من السكة ولكن لم يُعلَم الغرض منها ويضجعونهُ في دهليز منزلهِ ورجلاهُ الى جهة الباب ويغمرون فراشهُ بالورق والزهر وكانوا يدفنون موتاهم في الليل كما كان اليونان يدفنون وقت الفجر . وكان لهم في الدفن احتفالٌ غريب يجرونهُ في جنازات الاكابر وارباب الخطط فاذا مشوا مع الجنازة تقدم اولاً اصحاب الموسيقى ثم تلتهم النوادب وتلا هؤلآء جماعة من الممثلين يشخّص احدهم الميت في حياتهِ ويحاكي حركاتهِ وكلامهُ ويمشي بعدهم العتقآء من عبيد الميت وتُحمَل امامهُ صور اسلافهِ وما كان لهُ من اكاليل او جوائز حربية . والميت يُحمَل على نعشٍ من عاج مغطًّى بالذهب والارجوان والنعش يُحمَل على اكتاف الاقارب الأدنَين او العتقآء ويمشي الاقارب ورآء الجنازة ورؤوس ابنآء الميت مغطاة ورؤوس بناتهِ مكشوفة وشعورهنَّ منشورة

وسرت الى الرومان بعد ذلك عادة الاحراق من اليونان فكانوا يحرقون كل ميتٍ ما خلا المصعوق فانهم كانوا يدفنونهُ في مكانهِ اقتداءً باليونان ويعدّون ذلك المكان مقدساً وما خلا الاطفال فانهم كانوا يعفونهم من الحريق . وكانوا ينضدون الحطب على شكل هيكل مربع يجللونهُ بالسواد ثم يضعون عليهِ الميت مع نعشهِ ويدنو ادنى الناس قرابةً منهُ فيضع النار

في الحطب وهو محوّلٌ وجههُ ومتى ارتفعت النار كانوا يلقون عليها اطياباً وكؤوساً والواناً من الطعام وثياباً وجواهر وغير ذلك . واذا كان الميت امبراطوراً او قائداً كبيراً ذبحوا ذبائح وقد تكون من البشر وبعد هموده النار يأخذون العظام ويفعلون مثل ما ذكر في حديث اليونان

اما الامم الهمجية فيروَى عنها ما هو اغرب من ذلك فان سكان جزائر فيجي وبعض قبائل سيبيريا الشرقية يئدون الشيوخ من ذوي قرباهم اي يدفنونهم احياء تخفيفاً عنهم من مشقة الحياة وعجز الكِبَر . واهل الهند يقطعون عنهم الطعام حتى يموتوا جوعاً ثم يطرحون جثثهم في نهر الكنج . وبعض سكان جنوبي استراليا لا يدفنون موتاهم ولكن يوقدون ناراً عظيمة ويعلقون الميت فوق النار حتى يجفّ ثم يلفّونهُ في نسيجٍ صفيق ويجعلونهُ على شجرةٍ بين الاوراق . وروى الرحّالة مكدونلد عن بعض سكان كوينسلند وهو انكر ما رُوي في هذا الباب انهم يسلخون اجساد موتاهم ويأكلون لحمهم ويوزّعون عظامهم بين ذوي القُربى واما الجلد فيدبغونهُ ويحتفظون بهِ فيكون عندهم بمنزلة ذخيرةٍ ثمينة

الفتاة الحلبيّة

وردنا تحت هذا العنوان الموشح الآتي من نظم حضرة الشاعر المصريّ عيسى افندي المعلوف وقد عرّبهُ ببعض تصرُّفٍ عن قصيدة فرنسوية للشاعر الشهير دلامرتين نظمها سنة ١٨٣٢ يصف فتاةً حلبية كانت جالسةً بقرب بركة تدخن بالنارجيلة وهي مقلّدة بخنجر وقربها ابريق القهوة قال